

الإرهاب يضرب في الأعماق

نوزي بن يونس بن هديد

الأذى بالتحمل أولاً والتأني في الرد وعدم المجازفة حتى لا يخسر المسلمون كل شيء، وعندما نجح المؤمنون في امتحان امتصاص غضب العدو من خلال السلوك الحضاري الذي كانوا يتسمون به صاروا في موقع قوة ومنعة قادرين على تغيير الموجود والمألوف إلى الأفضل والمأمول، وهو الخروج من حالة الجهل والأمية والاستبداد والاستعباد إلى جو من الحرية والعزة والكرامة، وهو ما كان يأمله الفقراء والعبيد والمحتاجون من قريش، وهو ما كان يبغضه زعماء قريش وكبرائها، ولتأمين زعامتهم لجؤوا إلى العنف والقوة كوسيلة لردع هذه الفئة المؤمنة، لكن ما الذي حدث؟ اصطدموا بحواجز نفسية وأخرى إيمانية تقف صامدة في وجه العنف والعنجهية البربرية. واستمرت محاولات الصدد خوفاً من إقامة العدل والمساواة ومحاسبة الفاسدين حتى وصل الأمر إلى التهديد بالقتل، وقد عزم قريش على قتل رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو خارج من بيته الشريف إلا أن العناية الربانية تدخلت لحماية سيد المرسلين وأعمت أبصارهم وهو يخرج من بين أيديهم في موقف تعجيزي معجز «وجعلنا من بين أيديهم سداً ومن خلفهم سداً فأغشيناهم فهم لا يبصرون»، هاجر النبي الكريم على إثر الحادثة إلى المدينة المنورة التي استقبلته بفرح وشوق كبيرين مرددين «طلع البدر علينا من ثنيات الوداع وجب الشكر علينا، مرحباً يا خير داع» وأقام بها خير قيام وأسس على أرضها دولة الإسلام الراسخة على قيم العدل والمساواة والمبادئ العليا من العفو والصفح والتسامح فدخل الناس في دين الله أفواجا يعلنون إسلامهم أمام الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم، معلنين خلع رداء الجاهلية والعصبية وكل أنواع العبودية لغير الله سبحانه وتعالى، ربّي رسولنا الكريم صلى الله عليه وسلم أصحابه على الخلق العظيم وحسن التصرف حتى مع الأعداء، وصارت قريش على أهبة الاستعداد لإرهاب المسلمين الذي أبوا إلا أن يعلنوا أنهم صامدون على الحق مهما كلفهم الأمر. وحين التقى الجمعان كانت وصايا الرسول صلى الله عليه وسلم تُشَنَّف بها الآذان وتصدح بها الأسنن وبلغت الآفاق في التعامل مع الإنسان في

الحديث عن الإرهاب ليس أمراً يسيراً ولكنه أيضاً ليس عسيراً، وبين اليسر والعسر تتشكل مفاهيم الإرهاب القديمة والحديثة وتتعدّد حسب الأيديولوجيا الواقعية لكل عصر، وتتحدد حسب التوجهات السياسية المتنوعة والمتباينة أحياناً، غير أننا يجب علينا كمسلمين أن نقف عند حدوده وحقيقته وتداعياته حتى نفهم كنهه وما يرمي إليه، فالإرهاب عموماً في مفهومه لا يتعدى كونه ترويع الآخر دون ذنب اكتسبه أو جرم اقترفه، ولكن يحمل مفاهيم متعددة بعد أن صار الكل يتشدّق به وكأنه صنع اليوم بينما هو قديم قدم التاريخ، ومنذ مجيء الدين الحنيف حدّد الإسلام ضوابط التعامل مع الآخر مهما كان نوعه في إطار من الإنسانية لأن الله سبحانه وتعالى قال في كتابه العزيز «وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين»، فالرسول صلى الله عليه وسلم في بداية دعوة التوحيد تعرض لكل أنواع الإرهاب بمفاهيمه المجملية والتفصيلية، فكان أبو لهب وهو عمّه من أكثر الناس المحرّضين على إيذائه بل كانت امرأته تضع الأشواك في طريقه صلى الله عليه وسلم حتى تصيب جسده الشريف فنزلت فيهما سورة تتلى إلى يوم الدين وهي سورة المسد إذ قال سبحانه وتعالى: «تبت يدا أبي لهب وتب، ما أغنى عنه ماله وما كسب، سيصلى ناراً ذات لهب، وامرأته حمالة الحطب، في جيدها حبل من مسد..» بينما عمّه الآخر أبو طالب كان يدافع عنه من مكر قريش وخبثها وإرهابها، وظل على العهد إلى حين وفاته، ورغم جواب الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم الحاسم لعمه أبي طالب أنه لا يترك الدين الجديد مهما كلفه الأمر فإن أبا طالب لم يتوان لحظة واحدة في الدفاع عن نبينا الكريم. في بداية الدعوة المحمدية تعرّض الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم وأصحابه لمضايقات شديدة من قريش وأبنائها، حتى طلب الصحابة من النبي صلى الله عليه وسلم أن يأذن لهم بالدفاع عن أنفسهم وأن يردّوا على الاعتداء المقيت والإرهاب غير المبرر غير أن الرسول صلى الله عليه وسلم كان يصابرهم ويأمرهم بالصبر على الأذى وتحملته وتلك سمة تميز بها المسلمون عن غيرهم من البشر حينما يعتدى عليهم من أي جهة من الجهات، تعلموا كيف يردون

أي زمان ومكان، ومن لم يلتزم بهذه المعاني الراقية فهو إرهابي من الطراز الرفيع. قال رسول الله يوصي الجيش: «أوصيكم بتقوى الله وبمن معكم من المسلمين خيراً، اغزوا باسم الله في سبيل الله من كفر بالله، لا تغدروا ولا تغلوا ولا تقتلوا وليداً ولا امرأة ولا كبيراً فانياً ولا منعزلاً بصومعة ولا تقربوا نخلاً ولا تقطعوا شجراً ولا تهدموا بناءً». هذه وصية عظيمة إلى جيش المسلمين قبل مسيره إلى مؤتة لمحاربة الروم، وهي جدرة بأن تتلى مراراً ويتدبرها رؤساء الجيوش في العالم قاطبة ويعملوا بمقتضاها حرفاً حرفاً - إن كان لا مناص عن الحرب ولا مفر منها «فالإسلام لا يعتدي على الآخر بأي حال من الأحوال باسم الإسلام أو لشبهة أنه كافر أو مشرك إلا إذا اعتدى عليك أو مارس في حقك أي نوع من الأذى، وحتى في أعرق الحروب كان الرسول صلى الله عليه وسلم يوصي المجاهدين من أصحابه أن لا يجهزوا على جريح ولا يمثلون بالجثث ويعاملون الأسير معاملة راقية تتم عن حضارة إسلامية ثقافية وفائقة في التعامل مع الآخر مهما كانت شدة اعتدائه عليه وإرهابه لهم. ولعل السيرة الزكية للنبي عليه الصلاة والسلام هي النور الذي يستضيء به المسلمون في كل مكان يفهمون أخلاقه وتعامله مع الناس أجمعين فقبل بعثته كانوا يسمونه الصادق الأمين وبعد بعثته ازدادت ثقته برب العالمين وكان السراج المنير والهادي إلى سواء السبيل بروح من الله وعون منه، بل إنه صلى الله عليه وسلم نهى المؤمنين عن ترويع بعضهم بعضاً في قول مشهور عنه «من روع مؤمناً روعه الله يوم القيامة» وفي ذلك تشديد واضح على عدم الاعتداء على أي كان ومهما كان توجهه وعدم إكراه الناس على فعل أو اعتقاد يرفضونه واحترام الأديان الأخرى اليهودية والنصرانية ومعاملة أتباعها بالحسنى، فالإسلام في حقيقته ينبذ العنف بجميع أشكاله وألوانه وينبذ أكثر حينما يستخدم الدين وسيلة لتحقيق مآرب أخرى. فالكيد للإسلام بدا واضحاً من خلال اتهام المسلمين أو الذين يرتكبون أعمال عنف باسم الإسلام بالإرهاب، غير أن الإرهاب يشمل كل عمل فيه اعتداء على الآخر وهذه هي حقيقته التي نبحت عنها ونروج لها، فكل من يروج لأفكار باسم الدين أو العرق أو المنهج أو العقيدة بالقوة والعنف فهو إرهابي، ويدخل في هذا التعريف الأديان الأخرى والمعتقدات السائدة في المجتمعات الأخرى ليست بريئة عن الأعمال الإجرامية التي تحدث بين الحين والآخر، والصاق الإرهاب بالإسلام تهمة باطلة أريد بها باطل وهو الكيد للمسلمين في كل مكان وإضعاف روح الإسلام في قلوبهم، كما أن الفهم الخاطئ عند بعض المسلمين جعلهم ينجرفون وراء العاطفة التي تؤدي بهم

أحياناً إلى التهلكة فلنا منهم أن هذا هو الجهاد في سبيل الله، فكلما حدثت مشكلة في العالم وكان وراءها مسلمون قالوا الإرهاب يضرب العالم وعندما يكون وراءها آخرون من جنسيات المعتدى عليهم لا سيما في الغرب قالوا مختل أو مجنون، كيف يستقيم هذا المعنى؟ لا بد قبل الحديث عن مؤتمرات للبحث عن وسائل لمكافحة الإرهاب، أن نبحت عن الأسباب التي تؤدي إلى نشوئه في البلدان، ومعالجتها معالجة جذرية، لأن الإرهاب لا يكون من طرف واحد في العالم إذ يمكن أن تتبناه جهات متعددة وتمارسه دول بأكملها، وما الذي جعل هؤلاء يسلكون هذا الطريق المحضوف بالمخاطر، وهل هذا هو الصواب فيما يفعلون؟ إن الشباب الذي ظهر ويظهر على القنوات التلفزيونية معصوبي الأعين ويتوعدون العدو المفترض لديهم لم يخرجوا جزافاً بل إن هناك أسباباً مقنعة أحياناً لخروجهم من بينها الظلم والاستبداد والإجحاف والإحباط عندما لا يستطيع أن يمارس الشاب حياته الطبيعية ويرى الآخر يستغله ويستغزبه وربما يحقره ويقتل من شأنه سينفذ صبره وسيعلن الحرب على كل من يقوم بهذا الفعل. فالإرهاب منشؤه الأساسي إما العجرفة والطغيان أو محاولة استنزاف المعتدي واستدراجه لأخذ الحق منه، أو تبني مفهوم مغالط للجهاد، هذه الحالات كلها نعيشها اليوم، فالأول يمثل الإرهاب الصهيوني الغاصب للقدس الشريف والمحتل لأراضي الفلسطينيين، فقد عمد الصهاينة إلى إرهاب الفلسطينيين وقتلهم عمداً شيوخاً وأطفالاً ونساءً كما في غزة مرات ومرات، والولايات المتحدة الأمريكية تبرر الجرائم النكراء بالدفاع عن النفس، وأما الثاني فيتمثل في الثورات على الظلم والطغيان والاستبداد فحينما لا تجد الثورات مبتغاهما بالطرق السلمية يلجأ الثوار لاستنزاف الدولة حتى تستجيب لمطالبهم فتحدث الفوضى وينتشر الرعب في كل مكان وقد يعمد البعض إلى الاعتداء على الأمنين، بينما الثالث هو الذي نعاني منه اليوم وهو الذي يتبنى الجهاد بمفهومه المخالف للشريعة الغراء، فظهرت مجموعات تنظيمية مدعومة مادياً ومعنوياً من جهات تحارب الدول باسم الإسلام وتقطع رؤوس الأبرياء في مشاهد مؤسفة ومؤلمة حقاً، خربت البيوت الآمنة، اعتدت على النساء والأطفال والشيوخ، اغتصبت الفتيات، تعمّدت تجويع وترويع الأطفال والرضع، مات كثير من الناس بدون وجه حق، وانتشرت الفوضى وعمّ القتل والبلاء وصارت الدول الإسلامية في محنة كبيرة لم يشهد التاريخ مثلاً، استغاثت المنظمات بكامل فروعها وصدت اللاجئين وأطلقت صرختها العالية في جميع البلدان أنها لم تعد تتحمل الكم الهائل من اللاجئين وأنها بحاجة ماسة للمال والغذاء والكساء في وقت تجمدت فيه الأعضاء للحروب التي ضربت المنطقة.